الأستاذ محمد قديح

كان يا ما كان

لبنان بين الماضي والحاضر

لبنان يا قطعة سما، هكذا وصفه الفنان وديع الصافي بأغنيته الشهيرة (لبنان يا قطعة سما عا الأرض تاني ما الها ، لوحات الله راسما، شطحات أحلى من الحلى)، و كاتب الأغنية هو يوسف الأبن . وقد لحنها وغناها الفنان الكبير وديع الصافي سنة 1960 .

-1-

(كان) يا ما (كان)

بلد يمتد على مساحة جغرافية تتنوع فيها الآثار، وتتوزع على مناطق مختلفة لمسافات طويلة. وبدقائق يمكن للسائح أن ينتقل من منطقة الى أخرى، نظراً لصغر البلد، وقرب المناطق من بعضها البعض، فمن الشاطىء الأزرق(شاطئ البحر الابيض المتوسط) الى القمم العالية، الغابات، والأماكن التراثية المحفورة في ذاكرة التاريخ، كلها تتبدل أمام المُشاهد التي سرعان ما تظهر عن جمال لبنان الأخاذ .

-2-

(كان) يا ما (كان)

بلد ملتقى الثقافات والحضارات، وصفه العديد من الشعراء ، ببلد ملتقى الثقافات والحضارات المتنوعة، وأشاروا إلى أن تلك الأرض مرّت بتاريخ حافل من العطاء. والعديد من المدن والقرى تحمل في طياتها كنوزاً زمنية، وتحفًا فنية وتاريخية، وحتى العمارة اللبنانية القديمة تمثل حقبة قديمة. وليس بالكثير أن يعتبر البعض لبنان، جنة الشرق ودرّته، وموئل الفكر والحضارة.

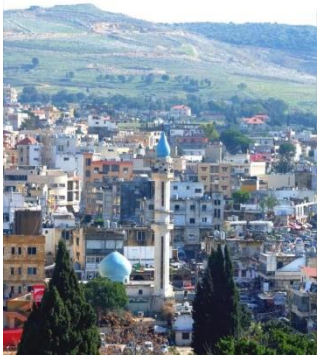

-3-

(كان) يا ما (كان)

ما تتفرّد به آثار لبنان هو تعدّد الحضارات في الأثر الواحد. والدليل على ذلك الآثار التي لا تحصى، والتي تمثل مزيجاً بين ما هو محلي ممثلاً بالمناظر الطبيعية الخلابة، من محميات ومغاور و... وماهو خارجي (ما تركته الحضارات التي مرت على لبنان .فمثلاً صخرة الروشة هي معلم سياحي لبناني ولكنه في الوقت عينه يعتبر تحفة تراثية من صنع الطبيعة. وهو عبارة عن صخرتين كبيرتين في بحر بيروت الغربي، ويفترض بعض علماء الجيولوجيا

بأن صخرة الروشة ظهرت بسبب عدة زلازل قوية ضربت البحر في القرن الثالث عشر، أدت إلى القضاء على العديد من الجزر المأهولة في ذلك الوقت وظهور صخور كثيرة مكانها .

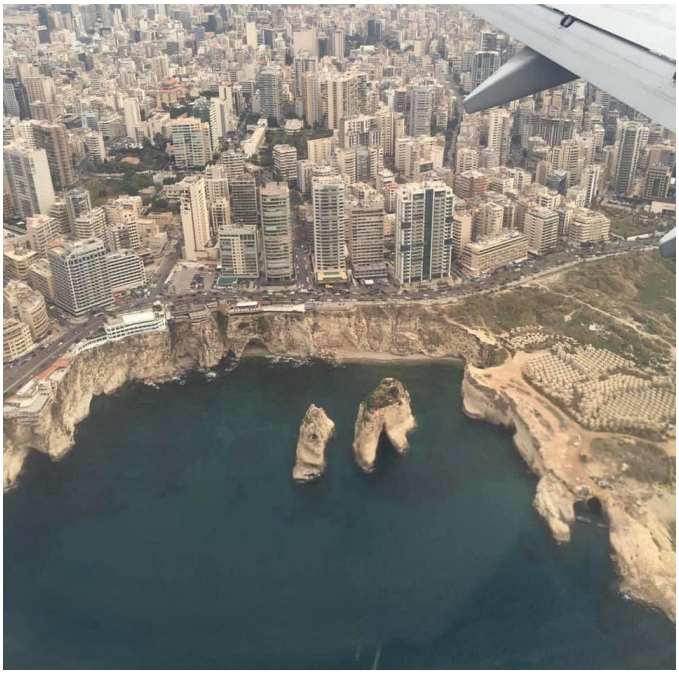

-4-

(كان) يا ما (كان)

العديد من المناطق اللبنانية على لائحة مواقع التراث العالمي، منها محمية أرز تنورين، التي تعتبر من أكثر غابات الأرز كثافة وتنوعًا، تتخللها تلالاً، قمماً، وكهوفاً طبيعية، تتفجر في سفحها وأوديتها مجموعة من الينابيع العذبة. وهنا لا يسعنا أن ننسى وادي قاديشا وغابة أرز الرب اللتين تملكان أهمية دينية وتاريخية كبرى، فالوادي كان موقعًا استوطنه الرهبان الأوائل هربًا من بطش الرومان الوثنيين، فبنوا الأديرة على جانبيه، رغم أن الوادي يقع في أرض وعرة جدًا في الجزء الشمالي من سلسلة جبال لبنان الغربية. كما تقع غابة أرز الرب بالقرب من الوادي، وقد أصبحت اليوم محمية طبيعية مخصّصة لإنقاذ ما تبقى من الأرز

اللبناني، وتتجلّى أهميتها التاريخية في أنها الغابة الأساسية التي قطع الفينيقيون أخشابها ليبنوا سفنهم ومعابدهم وليتاجروا بها مع المصريين والآشوريين.

ومن المحميات هناك أيضاً محمية أرز الشوف، وهي أكبر المحميات الطبيعية في لبنان وأكثرها غنى بالحياة البرية. وتعتبر محمية حرش إهدن، محمية نموذجية، فيها عدد كبير من أنواع الأشجار النادرة. ومحمية جزر النخيل، وهي تتألف من مجموعة جزر صغيرة قبالة شاطئ طرابلس .

-5-

(كان) يا ما (كان)

ذكر مؤرخون في تقارير وزعتها مديرية الآثار ووزارة السياحة اللبنانية أن "قلعة الشقيف" قرب مدينة النبطية جنوب لبنان، هي من أروع القلاع التي بناها الصليبيون في عهد "الملك فولك" ملك القدس، في أعلى منحدر صخري شاهق يقع على علو كيلومترين من مجرى نهر الليطاني، ويشرف على سهل مرجعيون ومنطقة النبطية.

وقد أطلق عليها الرحالة العرب اسم "شقيف أرنون" نسبة لبلدة أرنون اللبنانية التي تقع في أسفلها الشمالي الغربي، لكن هندستها التي تلتوي مع الجبل، وجدرانها المشيدة بالصخور المحلية، تجعلها تبدو كأنها "مخبأة" بين حنايا الصخور.

ترتفع "قلعة الشقيف" سبعمائة متر عن سطح البحر، شامخة تتحدى الغزاة منذ فجر التاريخ.

ودارت في القلعة حرب الحضارات ...قديما، بنيت ودمرت مرات عدة، وقد ظهرت فيها عظمة مميزة بدت على حصونها المهدمة وكأن أسود العالم قد حفرت بأنيابها تاريخها الممتد منذ الشعوب الأولى، حيث استخدمت كحصن لسد الثغرات من ناحية البحر، كما هو معروف عبر التاريخ.

شهدت "قلعة الشقيف" أهم الحِقَب التاريخية، وتميزت بدقة وعظمة الفن المعماري الذي اشتهرت به أكبر حضارات العالم القديم، وما زالت صامدة منذ آلاف السنين رغم التعديات وعمليات التدمير والتخريب الأخيرة الذي شهدته خلال سنوات حروب الاحتلال الإسرائيلي.

-6-

(كان) يا ما (كان)

بعلبك التي عُرِفَتْ بمدينة الشمس في العهد الهيلنستي. وحافظت على دورها الديني الذي وسمها به معبد جوبيتير، إله الشمس وحشود الحجّاج التي كانت تزوره. فبعلبك بمبانيها الضخمة تُعتبر من أهم آثار الهندسة الرومانيّة الإمبراطورية وهي في أوج ذروتها.

تعتبر بعلبك مدينة الآلهة، ومن الروائع الأثرية النادرة في العالم قلعتها التي تمتد الى الجذور الفينيقية. وقد لقّبت خلال عهد الإسكندر الكبير وخلفائه بـ "مدينة الشمس"، لتغدو مع الرومان مدينة العبادة والهياكل، وأشهرها، هيكل جوبيتر، معبد باخوس، معبد الزهرة. ومن معالمها الأثرية أيضاً القلعة العربية، برج من عصر المماليك، والمدافن الرومانية...

كانت بعلبك محط أنظار ملوك ورؤساء العالم، وقد طارت شهرتها بين باحثي الآثار، وأخذت بعقول متذوقي فنون البناء والسيّاح، وصنفت ضمن قائمة المدن العجائبية من حيث فن البناء في العالم.

-7-

(كان) يا ما (كان)

مغارة جعيتا: من أجمل المعالم السياحية، وقد تنافست مؤخراً هذه المغارة اللبنانية لتكون ضمن قائمة عجائب الدنيا السبعة، وهي تعتبر من المناظر الطبيعية واللوحات التي تأخذ بعقل الإنسان لروعة جمالها.

روعة المغارة يصعب وصفها بالكلمات، فهي كناية عن ترسّبات كلسية تدلّت كالشموع وغدت تماثيل رائعة من عمل الطبيعة، وفسحات وأعمدة ترتفع الى 30 متراً، تستظل الجبل سقفاً، وتحلم فوق مجرى مياه صافية مترقرقة فتذهل الناظر بفتنتها .

علاوة على نظام إنارة مدروس بغاية العناية والفن، يأخذ العقل بأنواره وما يتركه من ظلال، من خلال انعكاسه على الألوان الطبيعية المتنوعة الموجودة في الترسبات.

لقد تم وصل مدخلي المغارتين، الأعلى والأسفل، بقطار بحيث يستطيع السيّاح من كل الأعمار ، التمكّن من زيارة المغارة والتمتع بجمالها. وهذا ما يؤمنه التلفريك، الذي يمرّ فوق النهر، وصولاً الى المغارة العليا.

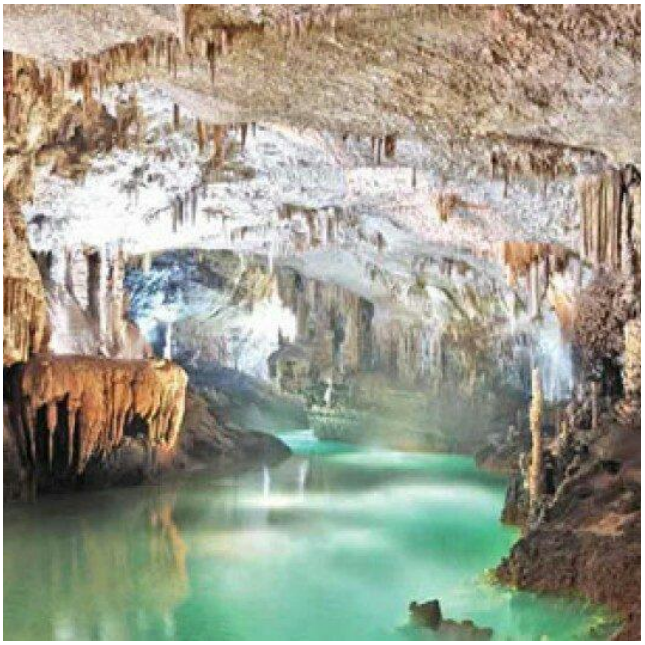

-8-

(كان) يا ما (كان)

صور مدينة الآثار المهمة: كانت المدينة الفينيقيّة الكبرى، حيث تمّ فيها اكتشاف الأرجوان بحسب الأسطورة، سيدة البحار، ومؤسسة المدن المزدهرة كقادش وقرطاج. وقد فقدت صور دورها التاريخي في نهاية الحروب الصليبية. وهي الآن تحافظ على آثارٍ تاريخيّة مهمّة تعود بشكل أساسي إلى العهد الروماني.

كل بقعة فيها تراثية

-9-

(كان) يا ما (كان)

أما بيروت العاصمة (درة الشرق وأجمل العواصم العربية) وقد تميزت بأسواقها المزدهرة والتي على رأسها ما يسمى بالـ DT أي وسط المدينة، حيث التراث المستحدث، من مبانٍ، وأسواق تجارية إلى معالم دينية، وفنادق سياحية عريقة، الى أبعد نقطة في لبنان، جميعها تحتضن آثارًا عريقة تستحق الزيارة .

-10-

(كان) يا ما (كان)

الرحلة إلى لبنان محطة لا تنسى، تقود الزائر في رحلة إلى قلب التاريخ، وجمال الطبيعة، والأماكن العصرية والمراكز التجارية. ففيه يجد الزائرون على اختلاف أعمارهم، فرصًا كثيرة للمرح، وقضاء عطلة من العمر .

-11-

كان – كان – كان

إلى "اللبنانيين العظماء" كان يتحدث الجنرال هنري غورو وهو المفوّض السامي الفرنسي في سوريا ولبنان من شرفة الطابق الأعلى لقصر الصنوبر: "تزفُّ لأهل لبنان الكبير خبر تأسيس دولتهم:

أعرف أنّكم فخورون بانتصاركم، وواعون بواجباتكم، تتطلّعون إلى المستقبل بثقة، وتعرفون من جانبكم، أنّه الأمس كما اليوم، تستطيعون الإتكال على مساعدة فرنسا ."

هكذا وُلد "لبنان الكبير" في أحضان فرنسا، الأم الراعية والمستعمر الحنون.

بعد نحو مئة عام وتحديداً في 6 /آب 2020، وخلال زيارته الطارئة إلى بيروت بعد انفجار المرفأ، خاطب الرئيس الفرنسي "إيمانويل ماكرون" الشعب اللبناني من قصر السفارة الفرنسية، وهو نفسه قصر الصنوبر. قائلاً: "لن نترككم أبداً. لبنان ليس وحيداً."

خاطبت فرنسا لبنان من قصر الصنوبر في حدثين تاريخيين متناقضين، يفصلهما قرن كامل من الزمان.الأول كان "انتصاراً"، كمّا وصفّه غورو، أمّا الثاني فمأساة، هي الأكبر في تاريخ الجمهورية اللبنانية من حيث ظروفها الزمنية والإنسانية والاقتصادية .

في المرة الأولى قال الجنرال غورو إنّ "لبنان الكبير جُعل لفائدة الجميع، وليس ضدّ أحد."

وفي المرة الثانية، أثناء وجود ماكرون في بيروت، قال وزير الخارجية الفرنسي إنّ هذا اللبنان نفسه مهدّد بالزوال .

هل لبنان الكبير، بعكس ما توقعّ غورو، لم يكن فائدة للجميع؟

وكيف فقد لبنان لمسته السحرية التي ضمنت له قبل عقود ريادة ثقافية وفنية، ووضعته في قلب توازنات الشرق الأوسط وسياساته؟

هل وجود لبنان لم يعد مبرّراً، على الأقل في "شكله" الحالي؟

لم يعرف لبنان منذ الاستقلال سوى فترات قصيرة لم تتعرّض فيها السيادة اللبنانية وأعمال الدولة للعرقلة. أحياناً بفعل الأيدي الخارجية، وأحياناً أكثر بفعل التجاذب الطائفي، وصراع المناصب والدولار.

من جبل لبنان، إمارة التعايش الماروني – الدرزي، إلى لبنان الكبير، جمهورية التعايش المسيحي – الإسلامي خلال التاريخ المعاصر، مرّ الكيان اللبناني بمخاض عسير ولا يزال.

استفيقوا من سباتكم أيها اللبنانيون!!!

لنحافظ على ما وهبنا الله إياه...